

أكذوبة في مصر اسمها المثقفون



السبت 29 أغسطس 2015 12:08 م

بقلم : مجدي مغيرة

لطالما سمعنا المحاضرات والندوات في النوادي والمسارح والجامعات ، وقرأنا في الكتب و الصحف والمجلات عن الدور العظيم الذي يؤديه المثقف في تنوير الشعب ، والأخذ بيد الجمهور نحو الوعي الذي يمنح الشعب حصانة ضد الاستغلال والاستغلال أيا كان نوع هذا الاستغلال والاستغلال....الاستغلال السياسي ... الديني...الفكريإلخ .

وقد صدقنا هذا الوهم سنواتٍ طوالي ، وأكبرنا دور المثقفين ، ومنحناهم ثقتنا ، والتهمنا كتبهم ومقالاتهم التهاما ، وافتخرنا بهم أمام كل من نقابله من أبناء الشعوب الأخرى

وكيف لا نفتخر بهم وهم الذين أناروا لنا طريق حياتنا ، وفتحوا أعيننا على كل جديد ومفيد ، ومزّنوا عقولنا على التفكير الناقد ، ودربوا ألسنتنا على الحديث بالكلام الهادف ، وارتقوا بمشاعرنا حتى صارت مشاعر مرهفة تنفر من الظلم ، وتستبشع الاستغلال ، وترفض الاستغلال ، وتنادي بالحق والحرية والعدل والمساواة دون أن تخشى ظالماً أو تهاب طاغية أو سفاحاً .

إلا أننا وجدنا عند المواقف الفاصلة والانعطافات الكبرى في حياة أمتنا ، وجدنا الكثير من هؤلاء - وأستثنى منهم قلة قليلة - على غير ما ظنناهم وعرفناهم ، حيث اكتشفنا أن كتبهم ونظرياتهم وقصائدهم ورواياتهم ومقالاتهم ومحاوراتهم ومحاضراتهم ما هي إلا أقنعة مزيفة يرتدونها للتجمل أحيانا ، وللخداع والتزييف أحيانا ، ولأكل العيش أحيانا أخرى .

وحينما أقول المثقفين ، فأنا لا أقصد - بالطبع - هؤلاء البوابين والسعاة وحفلة المباخر الذين وضعتهم أجهزة الأمن والمخابرات رؤساء تحرير للصحف والمجلات ، ومقدمي برامج في الفضائيات ، وصنعت منهم نموذجاً يقتدي به البُلّة والمغفلون ، ولكنني أقصد هؤلاء الذين حملوا ألقاباً ضخمة ، وحصلوا على شهادات عليا ، وتصدرت ألقاب المفكر والدكتور والمبدع والباحث والمستشار والخبير أسماءهم .

فقد وجدنا الأستاذ الجامعي وقد ملأت كتبه التي تنادي باحترام القانون أرفف المكتبات ، وطالما هاجم القوانين المخالفة لنصوص الدستور ، ولطالما هاجم النصوص الدستورية المخالفة لروح العدل ، فلما تسلم حقيبة وزارية ، أو منسبا رفيعا ، أو تولى إدارة جهة حساسة ، وجدناه يُفَضِّلُ القوانين التي تطلق يد الطغاة لتبطش بمن تشاء ، وتمتص دماء من تشاء ، وتنتهب أموال من تشاء ، وتصادر حرية من تشاء .

ووجدنا المختصين والخبراء في المراكز الاستراتيجية الذين طالما تكلموا عن أهمية الديمقراطية في رقي البلاد ، وضرورة الاستفادة من تنوع الأفكار وتعدد المفاهيم لبناء دولة تتسع لجميع أبنائها ، وتستفيد من جهودهم المخلصة في بناء نهضة يشارك بها الجميع ، ويسعد بها الجميع ، ويحذرون - بشدة - من إقصاء الجماعات والأحزاب مهما كان فكرها ، وإذا بنا نجد هؤلاء قد داسوا على أفكارهم بنعالهم ، ورموا نظرياتهم في صناديق الزباله ، ووظفوا جهودهم في التبرير للظالم ، وتخطئة المظلوم .

وجدنا المفكر الذي يتحدث عن حتمية التنوع الفكري ، وضرورة اختلاف الآراء ، وأهمية اتساع الصدور لاختلاف تلك الآراء ، ويردد - بحماس زائد - مقولة فولتير : "قد أختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد أن أموت دفاعاً عن رأيك " ، ويستنكر تشدد بعض الجماعات الإسلامية في بعض المفاهيم والأفكار ، فإذا ما رددت عليه بعض أفكاره ، وبينت له تناقض أقواله ، رأيته يمزج بصوته ، وأظهر أنيابه ، وأخرج مخالفه ، ولم يترك عيباً إلا وألصقه بك ، ولا تهمة إلا اتهمك بها ، وتراه يستغيث بالشرق والغرب ليتألبوا عليك ويسعون لكتم أنفاسك .

أحد من يُدْرَجُ في عداد المثقفين عجز عن مجازاة الإسلاميين فكربا ، وفشل في تلميع صنم الناصرية الذي يُعَبِّدُ في محرابه منذ

سنوات طويلة ، هذا المدعو بالمتقف حينما وقع الانقلاب العسكري في مصر دَجَّ المقالات البليغة يدعو فيها السيسي بذبح الإخوان المسلمين بلد رحمة ولد شفقة ، وحثه على نسيان حقوق الإنسان ، وعلى تجاوز القوانين والأعراف في سعيه لإبادة أفراد الإخوان المسلمين متجردا في دعوته من كل روابط الإنسانية والآدمية ، ويبدو أن صاحبنا كان ينتظر ثمن ذلك منصبا أو مكانة أو ما أشبهه ، ولما لم يجد ما كان يصبو إليه ، بل أهانه بعض العسكر في إحدى سفرياته ، انقلب بسبب ذلك على السيسي انقلاب الحائق المحروم من نصيبه في كعكة الانقلاب ، وليس انقلاب تائب إلى الله ، أو انقلاب مسترد لبعض إنسانيته أو آدميته .

• ووجدنا الشاعر الكبير الذي طالما تلقفنا قصائده بتلهف كبير ، وحفظنا منها المقاطع الطويلة ، تلك المقاطع التي توقظ فينا روح الشجاعة في قول الحق ، ورفض الظلم ، وحب التضحية من أجل الوطن ، ثم نجد نفس الشاعر يبرر ظلم الطغاة واستبدادهم ، بل ويحض الطاغية على ظلم الآخرين ، لا لشيء سوى أن النظام فتح له أبواب الفضائيات ، وأفسح له صدر الصحف والمجلات ، وأغدق عليه المناصب والمكافآت .

• ووجدنا الروائي الذي يزعم أنه يعبر عن الواقع ، ليكشف الحقائق ، ويقدم الحلول ، ويقدم الحريات ، ويبين مزايا الديمقراطية ، ويحذر من نظام الحكم العسكري والفاشي والقمعي والشوفيني والاستبدادي والمكاثري والشعبي ، ويندد باستبداد حكامنا القدامى والمحدثين ، ثم ينكشف غطاؤه وتظهر حقيقته ، ونراه متلبسا بالدفاع عن نظام الحكم العسكري والفاشي والقمعي والشوفيني والاستبدادي والمكاثري والشعبي .

• ووجدنا بعضهم ينعي على دستور البلاد عدم السماح لإقامة معابد للهندوس في بلادنا - رغم عدم وجود من يعبد البقر بيننا - ، بل ويعيب على البعض منا إنكاره لهولوكست (محرقة) اليهود على يد النازي هتلر ، ثم نجد هذا القديس وذاك الملك يحث الغرب على الموافقة والتخطيط لانقلاب عسكري على أول تجربة ديمقراطية في البلاد ، وينضم للعسكر المنفذين للانقلاب ، ويشارك في أول حكومة انقلابية شاركت في تخطيط وتنفيذ مذابح للمعتصمين السلميين تقشع لها الجلود ويهتز لها الوجدان .

• ووجدنا المدافعين عن حقوق الإنسان إذا تكلموا عن الحقوق ، تكلموا عن حق الردة عن الإسلام ، بينما إذا أسلم مسيحي أو مسيحية اتهموا الإسلاميين دون تحقيق ولا تمحيص باستخدام الإرهاب لإجبار الآخرين على اعتناق الإسلام ، وأوصوا بمنع ختان البنات وعقاب من يفعل ذلك عقابا شديدا ، وتكلموا عن جريمة الزواج المبكر وضرورة تأخير سن الزواج إلى ما بعد سن العشرين ، وفي المقابل ينادي بعضهم بحق حرية ممارسة الجنس للبنين والبنات ، وعن حق الإجهاض ، وعن حق ارتداء البنت ما تشاء من ثياب دون إنكار على المثير منها للغرائز والشهوات ، وإذا ما ارتدت الفتاة الحجاب أو النقاب برغبتها وجدتهم يهاجمونها ، ويتهمونها بالانغلاق ، ويفسرون تصرفها بأنه تعبير عن عقد نفسية وحرمان عاطفي... إلخ ، تلك هي الحقوق التي يدافع عنها الحقوقيون ، فإذا اعتقل الإسلاميون دون وجه حق صمتوا عنهم صمت القبور ، كأن هؤلاء الإسلاميين ليسوا آدميين لهم حقوق الآدميين وكرامة الآدميين .

لقد عرَى الانقلاب العسكري - بقسوة وغلظة - حقيقة كثيرة من الأدعاء...أدعاء الثقافة ، وأدعاء الفكر ، وأدعاء الحرية والديمقراطية ، وأدعاء حقوق الإنسان ، وبين لنا أن الإنسان الحر ليس بالضرورة هو من ارتدى ثياب العلم ، وتلف برداء الثقافة ، وتعمم بلقب المفكر ، ووضع على كتفيه شارة الأديب أو الشاعر ، بل إن الحر هو كل من رفض الظلم ، ودافع عن الحق ، وحافظ على حدود إنسانيته ، ورفض أن تُنْهَك آدميته ، أو تضيع حريته .